عدة الشباب من الحاضر

بقلم الدكتور ابراهيم مدكور
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب وعضو مجلس الشيوخ

لقد آن لنا أن نواجه الحقائق فى شىء من الصراحة والجرأة، وأن نعدل عن تلك الطريقة التى تقوم على شىء من المواربة والمداهنة، وخاصة فيما يتصل بالشئون العامة. وليس ثمت غضاضة على جيل ينشد الكمال أن يتعرف مواطن نقصه، ويبحث عن نقط ضعفه؛ إنما العيب كل العيب أن يغمض عينيه، ويتغنى بمجد زال وعظمة لم يبق لها وجود إلا فى ذاكرة التاريخ وليكن رائدنا جميعا قول الحق وإن كان مرا، وبذل النصيحة وإن ثقلت على النفوس.

فعلى هذا الأساس سنتحدث عن "عدة الشباب" وسيدور حديثنا حول نقطتين رئيسيتين ونجيب عن سؤالين هامين، فنبين أولا العدة الحقة التى يجب أن يعتد بها الشباب، والأساحة الناجعة التى ينبغى أن يتسلح بها ليخوض غمار الحياة، ثم نبحث ثانيا عما توفر لدى شبابنا من عدة، وهل هو مسلح التسليح الكافى للدخول فى معترك الحياة، فسنعرض للموضوع من ناحيتين: نظرية: ندرس فيها ما ينبغى أن يكون ونقدم نماذج من أحوال الشباب فى الأمم الحية، وواقعية: نشرح فيها ما نحن عليه ونوجه الأنظار الى أمور كلنا يحسها ويلمسها، ولكن قل من يصرح بها ويعترف بنقصها. ولعل فى مقابلة هاتين الصورتين ما يسمح لنا بإصلاح شئوننا وتقويم ما اعوج من أمورنا.

إن عدة الشباب الكاملة تتلخص فى أسلحة ثلاثة: سلاح جسمى، وآخر عقلى، وثالث روحى؛ فلا يستطيع الشباب أن يؤدى رسالته على وجهها إلا إذا رزق بدنا معافى وصحة تامة. وإذا كانت الصحة ضرورية لنا فى كل أطوار الحياة، فهى ألزم ما يكون فى مرحلة الشباب، لأنها مرحلة النشاط الدائم والعمل المجدى. والشاب لا يعمل ليومه فحسب، بل يعد العدة لغده، ولا يفكر فى حاضره فقط، بل هو مضطر لأن يحسب حساب مستقبله، فهو يبنى فى اختصار أثناء شبابه دعائم حياته ويؤسس أركان مجده؛ وكل ذلك يتطلب نشاطا ومجهودا عظيمين.

ولا أظننى فى حاجة أن أشير إلى أن مجد الأمم الراقية يعتمد فى قسط كبير منه على مجهود الشباب، فهو ركنها الثابت ودعامتها الأولى: يعمل فى المصنع والحقل، وينتج فى الديوان والمتجر، ويفتح أبواب الخير والرزق بما أوتى من سواعد قوية وجسم سليم. وأن الانتاج

القومى لينمو ويتقدم بقدر ما يتوفر على الشباب من صحة وعافية . ولا غرابة فان ذوى الأبدان الهزيلة والأجسام النحيلة لايستطيعون أن يقاسموا فى سعادة بلادهم ورفاهيتها بدرجة واضحة . فصحة الشباب اذن مصدر من مصادر الثروة العامة ، ومن الظلم أن تهمل أمة صحة بنيها فتبدد ثروتها بيدها ، وتقضى على كنز من كنوزها الثمينة . لهذا عنيت بها الأمم الحية كل العناية ، فأقامت من أجلها ميادين الألعاب وأسست الأندية وأعدت باسمها المشتى والمصيف ونظمت الأسفار والرحلات .

وليست صحة الشباب غالية ونفيسة باسم الانتاج والسلم فحسب ، بل هى أغلى وأنفس باسم الحرب والدفاع عن حياض الوطن . فالشبان هم الذين يقدمون أرواحهم الطاهرة قرابين على معبد الحرية ، وهم الذين يطهرون بدمائهم الزكية أرض البلاد من كل غاصب . وتاريخ الحروب يشهد بأن جنايتها على الشباب أعظم منها على الكهول والشيوخ ، وفى فرنسا بعد الحرب العظمى ما يقوم أصدق شاهد على ذلك . وما لنا نذهب بعيدا والحرب الحاضرة إنما يبعث فيها الى الميدان بالشبان الأشداء ، الذين يستطيعون الدفاع عن حماهم والذود عن كرامتهم .

فشباب لا صحة لديه يفقد السلاح الأول من أسلحة الكفاح فى هذه الحياة ، ولا أمل فيه يرجى لا لنفسه ولا لأمته .

على أن صحة الأجسام وحدها لا تكفى فى حياتنا الحاضرة المعقدة المملوءة بالمشاكل والصعاب ، ولا بد إلى جانبها من عقول سليمة وتربية فكرية كاملة ، وهذا هو السلاح الثانى من أسلحة الشباب الضرورية . وإذا ما تحدثنا عن التربية الفكرية فإنما نرمى إلى قدر من الثقافة مشترك بين جميع الشبان ، يربطهم برباط عقلى ويسمح لهم بالتعاون والاتصال . وكلما كانت هذه الثقافة منسقة منسجمة ، كلما كان هذا أعون على التفاهم وأدعى الى الوحدة والارتباط . ومن الجناية على شعب أن تتباين فيه وسائل الثقافة والتعليم ، فإن ذلك يقضى على وحدته الفكرية والإجتماعية ، ويخلق منه شعوبا فى شعب وأمما فى أمة . لهذا جدّت البلاد الراقية على اختلافها فى توحيد وسائل الثقافة كى تتكون عقول الشباب فى قالب واحد وتطبع على صورة مشتركة .

وليكن واضحا أنا لا نريد بالثقافة مجرد التهام طائفة من المعلومات أو استيعاب بعض الآراء والنظريات ، وإنما نريد بها أولا وبالذات أن تولد فى الشباب ملكة الحكم الناضج ، وتعودهم النظر البعيد ، وتوسع أفقهم فلا يضيق صدرهم بفكرة مهما بدت غرابتها . والشبان أحوج ما يكونون إلى دقة فى أحكامهم وروية فى تكوين آرائهم وتعمق فى بحثهم ، لأنهم بفطرتهم متسرعون مندفعون . ولن تحقق تربيتهم الفكرية غايتها إلا إذا صوبت إلى هذه

الأهداف وعنيت بهذه الأغراض . ولا بد لنا فوق ذلك من أن ننمى خيال الشاب بحيث ينظر دائما بعيدا ويرمى بعيدا ، فلا يقنع بالمألوف ولا يطمئن الى السهل الدارج ، بل يخلق ويبدع ويجدد ويبتكر ، وما نراه فى أوربا من تجديد مطرد وابتكار دائم وعبقرية مدهشة ليس إلا نتيجة تلك التربية العقلية الصحيحة . فإن كنا نريد لأمة أن تسير فلنكل زمامها إلى قواد من شبابها البعيدى النظر ذوى المطامح السامية والهمم العالية ، وإن لم يكن فى مقدور هؤلاء الشبان أن يخلقوا ويجددوا ، وإن لم يرموا بأنظارهم إلى مدى واسع فالأمل فى التطور والإصلاح ضعيف أو معدوم .

وإذن لا بد للشباب من حكم ناضج ونظر ثاقب وخيال واسع وتفكير شامل يمكنه من الإلمام بمختلف أطراف المسائل إن كان يريد أن يعيش عيشة سعيدة بين أبناء القرن العشرين .

وإذا ما توافرت فى الشباب سلامة جسمه وكمال عقله ، فإنا نرجو له شيئا آخر هو طهارة روحه ونقاء قلبه ، فيتحلى بأسمى العواطف وكريم الخلال . ولعل حضارتنا العصرية قد اتجهت نحو الجسم والعقل وأهملت الروح جانبا ، وها هى ذه تلاقى جزاء صنيعها من حين لآخر بما يحدث فى العالم من فورات واضطرابات وحروب وويلات . ولو كان شبان اليوم ذوى أرواح صافية تمام الصفاء وقلوب طاهرة تمام الطهر لما لبثنا حتى اليوم فى ما نحن فيه . فتربية الشاب الكاملة تستلزم أن يغذى بغذاء قلبى ويزود بزاد روحى يبدو فى ضميره الحى وإرادته القوية . فيرسم لنفسه مُثلا عليا يسعى الى تحقيقها مهما كلفه ذلك من عناء ، وينفر من الرذيلة بقلبه دون حاجة الى مرشد أو رقيب .

وهذا السلاح الثالث شرط لإنتاج السلاحين السابقين إنتاجا صحيحا . ذلك لأن الجسم القوى بلا ضمير حى ربما أدى إلى أخطر الجرائم ، والتفكير العميق بلا إرادة قوية وعزيمة ماضية ربما كان مبعث الحيرة والتردد دون أن يوصل إلى غاية أو يؤتى أية ثمرة . وكثيرا ما غطى المرء بكمال خلقه على نقصه الجسمى والعقلى . وتفاوت الأمم المتحضرة فيما بينها إنما يرجع فى الغالب إلى فروق خلقية وخصائص روحية ، والشبان من أعرف الناس بلغة القلوب وسلطانها ، فإهمالها فيهم قضاء على قوة من قواهم العظيمة وسر من أسرارهم البالغة .

* * *

هذه هى عدة الشباب من الحاضر ، وندع الآن جانبا عدته من الماضى والمستقبل ، فتلك تتطلب مقالة أو مقالات أخرى . ويحسن بنا أن ننتقل فورا إلى بيان ما توافر لدى شبابنا من هذه العدة ، وتلك هى الناحية التى نحب أن نقف أمامها قليلا .

فأما الجانب الصحى فيسوؤنا أن نصرح أنه يدعو إلى الأسى والحسرة ، وفى نتائج الكشف الطبى الذى أجرى اخيرا على طلاب الجامعة والمدارس الثانوية لاختيارهم للتدريب العسكرى ما ينهض دليلا على ذلك ، فإن نسبة السقوط فيه مع الأسف وصلت إلى نحو ٧٠ ٪ و إذا كان هـذا شأن شباب المدارس الأميرية الذين يحظون بقسط من العناية والرعاية ، فكيف يكون حال أولئكم البائسين شباب القرى ؟ إنهم فى أغلبهم — دون مبالغة — أشبه ما يكونون بمستشفى متحرك جمع بين مختلف الآلام والأمراض ، فلم يخل الواحد منهم بعلة واحدة ، بل تصالحت عليه أمراض شتى ؛ وكم تبعث أناتهم وصيحاتهم فى القلب لوعة وفى النفس أسى وحسرة !

ولئن كنا قد نجونا نوعا ما من الطاعون وتلك الأوبئة الكبرى التى كانت تجتاح زهرة البلاد وشبابها من حين لآخر ، فإنا لا نزال فريسة لبعض الأمراض المتوطنة كالبلهارسيا والإنكلستوما والدوسنطاريا والملاريا والرمد الحبيبى . فهذه الأمراض المهلكة وجدت سبيلها إلى كثير من شبابنا ، وانتشارها بيننا واضح مشهور ؛ فلا داعى لأن نردد إحصاءات يطول بنا المقام لو حاولنا سردها جميعا . وينبغى أن نقول إن نسبة المصابين بالبلهارسيا بين شبابنا قد تصعد إلى ٩٠ ٪ و إن الدوسنطاريا آخذة فى الانتشار فى العشر السنوات الأخيرة على صورة مزعجة ، وقد تبلغ نسبة إصابات الرمد الحبيبى فى مختلف مظاهره ٩٥ ٪ .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لقلنا إن هذه أمراض المناطق الحارة المائية ، فليس بغريب أن نراها بيننا . ولكنا مع الأسف أصبحنا فريسة لطائفة أخرى من الأمراض التى لا تظهر عادة إلا فى البلاد الباردة ، وأعنى بها الأمراض الصدرية والسل بوجه خاص . و يسوؤنى أن ألاحظ أن هذا المرض الذى يعد عدو الشباب الأول بدأ ينتشر فى القرى والمدن على شكل مخيف ، و إذا كنا لم نقم بعد بإحصاءات دقيقة فى هـذا الصدد فلا نزاع فى أن هذا المرض الخبيث يزداد يوما بعد يوم . وكلنا نلاحظ أن مستشفياته الخاصة آخذة فى الازدياد بعد أن كنا بالأمس القريب لا نشعر بها ، وأستطيع أن أقرر أن من يقصدون هذه المستشفيات لا يذكرون فى شىء بجانب أشخاص آخرين مصابين بهذا الداء الوبيل ولما يعلنوا عن أنفسهم .

الحق أن الأمر فى منتهى الخطر والخطورة ، ويتطلب تفكيرا جدّيا وعلاجا ناجعا ، إن كنا نريد سعادة أبناء الوطن ورفاهيتهم . وجدير بنا ألا نعيب على شبابنا كسلهم وضعفهم وقلة إنتاجهم ، فقد يكون ذلك راجعا إلى نقص تغذيتهم وسوء صحتهم . ولا ندهش من جهة أخرى إذا كنا من أقل الامم إنتاجا ، فإنا فى ضعفنا وأمراضنا لانستطيع أن ننتج خيرا مما نفعل الآن . وما أجدر الذين يشكون من نقص الثروة العامة وضيق البلاد بسكانها ،

أن ينظروا إلى هذه الناحية ، فإنا إذا أنتجنا كما ينبغى استطعنا أن نرفه عن أنفسنا كثيرا . ويطول بنا الانتظار لو ترقبنا خطوات الحكومة فى هذا السبيل ، وواجب الأغنياء والموسرين أن يتذكروا أن فى أعناقهم أمانة لأبناء هذا الشعب وشبانه لابد أن يؤدوها ، ولا يسمح الوقت بعد بتأخيرها ؛ و إن لم يقف الشعب بجانب الحكومة فى الإصلاح الاجتماعى المنشود فالأمل ضعيف فى الوصول إلى نتيجة سريعة مطمئنة .

وليست حال الشباب العقلية والفكرية بأحسن من حالهم الجسمية ، فتعليمنا يقوم على الحفظ والتحصيل ، ولا يعنى كثيرا بتكوين القوى والملكات . وصلة التلميذ والطالب بالبحث والعلم مقصورة على ساعات الدرس ولحظات الامتحان ، و إذا انتهى ذلك انتهى معه كل شىء . وتعليم هذا شأنه مبغض ممقوت ، يود المتعلم أن يخلص منه بأى ثمن ، ولا يحب أن يعود إليه مرة أخرى . لذلك كنا من أقل الشعوب قراءة وأبعدها عن البحث وحب الاستطلاع . ويؤلمنى أن أقول إن كثيرين من طلاب المعاهد والمدارس الأميرية يفخرون بأنهم لا يعرفون من الكتب إلا ما أوجبته النظم التعليمية واستلزمته الامتحانات . ولأكن أصرح من هذا فأقول : إن كلا من محامينا ومعلمنا وطبيبنا أعرف بالقانون وأكثر اطمئنانا إلى مادته وتأكده من طبه على إثر تخرجه من المدرسة منه بعد ذلك بقليل ، وكأنما العلم فى نظره كل ما حفظ فى الدرس ولا شىء سوى ذلك ، فاذا ما تقدم به الزمن نسى ما عرف وفقد ما حصل ، ولا يجهد نفسه بعد هذا فى قراءة أو اطلاع . قد أكون مغاليا فى بعض ما أقول ، وقد يكون هناك عشاق للقراءة ومحبون للاطلاع ولكنهم بلا نزاع قليلون .

هذا هو تعليمنا من حيث مادته ، أما من حيث آثاره ونتائجه الفكرية فلا يختلف عن هذا كثيرا . نفى أحكام شبابنا ما يبعث على الاشفاق والسخرية ، وفى نظرهم إلى الأشياء مايدل على السذاجة وعدم التعمق ، وفى حيرتهم وارتباكهم فى أغلب المواقف ما يؤذن بضعف الشخصية وعدم الاستقلال فى البحث وقلة الابتكار . والواقع أن نظمنا التعليمية وضعت لتصنع آلات لا لتكون شخصيات ، والعالم بعد أن وصل إلى ما وصل اليه من التقدم فى البحث والاختراع لا يرضى لبنى الانسان أن يكونوا " نمرا " وآلات ، أو أجهزة تسير سيرا آليا ، ففى مقدوره أن يصنع من ذلك الشىء الكثير الذى لا يكلفه مثلما يكلفه هذا الانسان .

وأخيرا إذا ما حاسبنا شبابنا عن الجانب الروحى وجدنا نصيبه منه أيضا جد ضئيل . فلا هاتف من الضمير يدعو إلى تقديس الواجب لأنه الواجب ، أو يرعى المصلحة القومية متى تعارضت معها مصالح شخصية شتى . بل أصبحنا أثرين نفعيين لا نفكر إلا فى أنفسنا ، ولا نقيس

الأمور بمقياس الخير العام و إنما نبحث عما تجلبه لنا من منفعة ولذة . فلا نحسب للفضيلة ولا للرذيلة حسابا كبيراً، ولا نعبأ كثيرا بالعرف والتقاليد . وهكذا انهارت أخلاقنا انهيارا لاشك فيه، وأصبحنا نتساءل كل التساؤل إلى أية هاوية نحن مسوقون .

والصفات المكونة للشخصية بوجه خاص آخذة فى الانقراض ، فلا صراحة ولا شجاعة ولا عزيمة ولا إرادة . نداجى ونجامل ، ونصور الشيء الواحد بصور شتى على حسب الميول والأهواء ، وقل منا من يجرؤ على أن يجهر بكلمة الحق فى وجه منكريها . أما إرادتنا فضعيفة كل الضعف ، وعزيمتنا لا تصمد للشدائد طويلا ، وربما كان هذا من أهم أسباب فشلنا فى مشروعاتنا المختلفة .

هذه هى عدة الشباب ، وهذا هو نصيبنا منها ، وهم يقولون : إن الاحساس بالنقص أول مرتبة من مراتب الكمال . ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك ، فإن من بيننا فريقا لا يؤمن بهذه الأسلحة ولا يسلم بمضائها ، ويجد فى البحث عن أسلحة أخرى يعتقد أنها أجدى وأنفع له فى مضمار الحياة ؛ لأن التجربة أيدتها والواقع فى قسط كبير منه ثمرة من ثمارها . وفى مقدمة هذه العدة الثمينة والأسلحة الماضية يضع شبابنا التراث والمال ، والحسب والنسب ، والتصنع والملق . فليس ثمت عقدة فى هذه الحياة الدنيا — كما يرون — إلا والمال يستطيع حلها ، وليس ثمت منصب سام إلا والحسيب والنسيب ومن له " ظهر " يستطيع الوصول إليه ، ومن فاته هذان السلاحان فلا عليه إلا أن يطأطئ ليصل ويتملق لتفتح له الأبواب كلها . تلك هى الآفة السيئة التى يشكو منها الحاكمون والمحكومون ، والعقيدة الخاطئة التى امتلأت بها أدمغة الشباب جميعه ، فقضت على القيم الحقيقية والمعايير الصحيحة . وأصبحنا ونحن لا نحترم قانونا ولا نقدس مبدءا ولا نعترف للحقوق بسلطان ، لأن " الواسطة " فوق ذلك وأقوى من كل ذلك . وكم شق الوسطاء بسعيهم و إلحاف الناس فى سؤلهم والتردد عليهم ، وأظن أن أولى الأمر أعظم شقاء فهم فى حيرة بين قدسية القوانين ومرضاة " الخواطر " .

واعتقادى أنه لن تعود الأمور إلى نصابها إلا إذا كسرت هذه الأسلحة المفلولة وحوربت هذه العقائد الفاسدة . حين ذاك — وحين ذاك فقط — يمكننا أن نحدث الشبان عن عدة حقة يعتدون بها ، ومعان سامية ينشدونها ، وخلال فاضلة يعتنقونها . وحين ذاك أيضا سيكون رائدهم المثل الأعلى أولا ، وسيرددون قول الأعرابى القديم :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوما على الآباء نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثلما فعلوا .

إبراهيم مدكور